بسم الله الرحمن الرحيم

# أيامي في مصر

## الحلقة "الثانية"

الدكتور / عبدالعزيز بن أحمد البداح

يوم الأحد الموافق ٢٥ /١٠/ ١٤٤٢هـ

بعثت أوراقي إلى إدارة الدراسات العليا في جامعة الأزهر وأخذت أتابعها عن طريق الهاتف، وذكروا لي أنها أُحيلت إلى لجنة المعادلات في كلية أصول الدين، وكنت على موعدٍ مع أوّل رحلةٍ إلى مصر في سنة "١٤٢٠" ومعي أحد الأصدقاء الذي لم يُكمل دراسته في مصر، وأكملها في السودان.

ولحكمةٍ ربانيةٍ ووفق إرادة الله الغالبة وقدرته النافذة يخرج الرجلان معًا طلبًا للغرض نفسه، فيُعطاه أحدهما، ويُحجب عن الآخر، وكأن هاتف القدر يقول للأول" كُتب قضاء حاجتك هنا"، ويقول للآخر: " حاجتك هناك".

وفي صباح اليوم التالي خرجنا بالزي السعودي المعهود، ولم نلبسه بعد ذلك طيلة ترددنا على مصر؛ لأنه بدا لنا أن الأمر أسهل بكثيرٍ مما تصوّرنا، وأن لك أن تلبس ما شئت، والسهولة والبساطة مما يُميّز العيش في "مصر"، ترى البساطة والسهولة في اللباس والطعام والتعامل بين الناس.

وعرفت فيما بعد أن هناك سعوديين كثيرٌ يقيمون في مصر إقامةً دائمةً، ولعل من أسباب ذلك بساطة العيش وسهولته.

ركبنا في سيارة الأجرة، وعرّفنا صاحبها بأنه سبق له العمل في "السعودية" وعمل مع أناسٍ نعرفهم، وصار لنا به صحبةٌ بعد ذلك، لكنها لم تطل.

وهذه هي الدنيا على طولها وعرضها تراها صغيرةً عندما ترى من تعرفه بعد طول غيابٍ.

وتدرك أن الدنيا على الرغم من تعقيداتها أحيانًا إلا أنها بسيطةٌ وسهلةٌ في أحيانٍ أخرى، والذين يستطيعون أخذ الحياة بسهولةٍ تسكن نفوسهم ويصلح بالهم ولا يجد الشيطان عليهم مدخلًا من هذا الباب في تحزينهم وتخويفهم والإجلاب عليهم قلقًا وفزعًا، وضيقًا وهلعًا.

ويقابلهم الذين يحملون همّ كل شيء، بل بعضهم مطرق الرأس خائفٌ وجلٌ.. ينتظر الفواجع والبواقع.

ومن استطاع أن يوطّن نفسه على الهدوء والسكينة وأخذ الأمور بالرويّة والتؤدة نال حظًا كبيرًا من السعادة والعيشة الهنيّة، ولا يكون ذلك إلا بالتعلّق بالله وحده، واليأس مما في أيدي الخلق، والرضا بالقضاء والقدر، وتفويض الأمر لله واعتقاد كفايته لعبده المؤمن.. كفايةً لا يحتاج معها لبشرٍ ولا يفتقر لمخلوق؛ لأنه سبحانه هو الذي يُسهّل الأمور ويُيسر الأحوال، وجاء في الحديث: **"اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحَزَنَ إذا شئت سهلًا"**.

وعشت في طريقي إلى الجامعة صباح ذلك اليوم مرورًا بكثيرٍ من المعالم التاريخية المختلفة حالة تأمّل، ومرّت بي سحائب التاريخ في دولٍ وشخصياتٍ وأحداث .

إنها القاهرة: تُحدثك عن الحكم العبيدي، وتشهد على الدولة الأيوبية ، وتهتف بصراع المماليك، وتُبرز حضارة محمد علي، وتُنبئك عن الأزهر.

القاهرة: تُذكرك شجاعة صلاح الدين الأيوبي، وحفظ الحافظ ابن حجر، ومؤلفات السيوطي، وتاريخ الجبرتي، وفصاحة المنفلوطي، وشعر شوقي، وعبقريات العقاد.

القاهرة: تحكي عن نابليون الفرنسي، وكرومر الإنجليزي، وعن المصري تحت الحكم الملكي والجمهوري.

وتذكّرت ما قاله محمود البارودي شوقًا وحبًا للقاهرة:

**قتيلُ حبّكِ لا دنيا تبدّلهُ**

**ولا الظروف ولا سيلٌ من المحنِ**

ومرّ بطيفي ما قاله حافظ إبراهيم:

**كَمْ يُكابدُ عاشقٌ ويلاقي**

**في حبّ مصرَ كثيرةَ العشّاقِ**

**إني لأحملُ في هواكِ صبابةً**

**يا مصرُ قد خرجتِ عن الأطواقِ**

أُعجبتُ بمصر، وكلّما عدتُ منها أنتظر الرجوع إليها؛ لأني وجدتُّ فيها أُنْسًا وراحة، ومع ذلك كلما عدتُ إلى الرياض ونظرتُ إليها من نافذة الطائرة ينتابني شعور الحنين، ويختلجني الميل والصبا، ويحضرني قول أبي تمّام:

**نقّل فؤادك حيثُ شئتَ من الهوى**

**ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ**

**كَمْ منزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفتى**

**وحنينهُ أبدًا لأوّلِ منزلِ**

نزلنا في الدور السابع من مبنى الجامعة فاندهشت لسكونٍ يُخيّم على المكان ورأيت عاملًا في آخر طُرْقَةِ ذلك الدور، فسألته عن الموظفين، فقال لي: "أنت بتاع اللبن" يقصد أني جئت مبكرًا" تعال بعد العاشرة" وعرفت أن الموظفين يتأخرون في الحضور ويتأخرون في الخروج تبعًا لذلك.

دخلنا على مدير إدارة الدراسات العليا في الجامعة، ووقع موقفٌ لا يخلو من طرفةٍ وحرج، إذ دخل أحدهم علينا ولمّا عرّفه المدير بي، أخرج من جيبه علبة "السجائر" وعَزَمَ عليّ أن آخذ إكرامًا لي، وقبل أن أجيب تدّخل المدير بأننا نرى التدخين حرامًا والحقيقة أنه مكروه!! وانتهى الموقف حينها .

والتدخين منتشرٌ في المجتمع المصري وفي الطبقات كافّة، والفتوى الشائعة عندهم أنه مكروه، ولا أدري هل وقع الناس فيه تبعًا لخفّة الفتوى وتهوينها من شأنه؟ أو أنّ الفتوى رضخت للواقع في انتشاره وشيوعه فخفّفت الحكم؟

**وفي تلك المرحلة رأيت فتوى للدكتور "نصر فريد واصل" مفتي الجمهورية في زمنه ممهورةً بختمه تعلّق على أبواب المساجد يقرّر فيها حرمة التدخين، ولعله أكثر المفتين حزمًا في المسألة ووضوحًا فيها فيما وقفت عليه .**

والدكتور "فريد نصر واصل" فقيهٌ فاضل، ترى فيه وقار العالم وهيبته، وكانت له فتاوى في مواجهة قراراتٍ وقوانين رآها مخالفةً للشريعة الإسلامية.

وكان كتابه: "السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام" مقررًا علينا في السنة المنهجية للماجستير في تخصص "الفقه" في الجامعة الأمريكية المفتوحة في القاهرة.

على أن التدخين كان -ولا يزال في طبقاتٍ من المجتمع المصري -مرفوضًا، ومرّ عليّ من خلال مجالس الناس وحديثهم أن الأب إلى زمنٍ قريبٍ كان يُعاقب أبناءه على تعاطيه ولا يزال ذلك عند بعضهم.

والفتوى لا يُمكن فصلها عن واقع الناس فهي تُؤثّر وتتأثّر، وإن اختلف مقدار التأثير في هذا المجتمع أو ذاك، ولو استقرأت التاريخ ونظرت في الواقع لوجدت أن الفتوى حاضرةً في المجتمعات الإسلامية، بل إن الفتوى صنعت أحداثًا عظامًا في التاريخ الإسلامي وبعضها لا تزال آثاره إلى زماننا .

وكان الجانب الديني والفتوى جزءٌ منه من أقوى المؤثرات في المجتمع؛ لأن المجتمعات العربية والإسلامية متدينةٌ، والدين حاضرٌ في حياتها مرتبطٌ بتفاصيلها.

وفي المجتمع المصري تطل علينا مظاهر التديّن بوضوح، رأيتها في المساجد التي تمتلئ بالمصلين، والتزام كثيرٍ من النساء بتغطية رؤوسهن وبعضهّن بتغطية الوجه، وفي القنوات الإسلامية كقناتي:

"الرحمة" و "الناس" التي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ وواضحٌ في مرحلة بثّهما، وترى التديّن في كثرة حفّاظ القرآن من مختلف طبقات المجتمع، وفي مراكز تحفيظ القرآن الكريم وحلقاته للرجال والنساء، وفي انتشار الكتاب الشرعي والإقبال عليه، وفي إقبال الناس على أداء الحجّ والعمرة.

وسأحدثك مستقبلًا عن "الأزهر" وامتداده الواسع وتأثيره البالغ في الحياة الاجتماعية في "مصر".

واطلعت على مقابلاتٍ مع رموز الليبرالية المصرية "كجابر عصفور" "وأسامة غزالي حرب" وغيرهما، يأسفون على حال المجتمع المصري في انتشار التديّن فيه كالحجاب والإقبال على العمرة!!

وظهور التديّن وقوته في المجتمع المصري يشير إلى أن الدين حاضرٌ في المجتمعات العربية والإسلامية ولا يمكن طمسه أو إضعافه، فالمجتمع المصري تعرّض لضرباتٍ قويةٍ تستهدف تدينه كالليبرالية الاجتماعية التي فرضها عليه " جمال عبدالناصر" في فترة حكمه، ونشاط السينما والفن والتمثيل في تأصيل الانحراف، وتشويه التديّن، وتغيير المفاهيم، ومسايرة الفتوى للواقع ورضوخها له واستجابتها لضغوطه في بعض المراحل، وظهور المذاهب الفكرية المختلفة كالشيوعية والقومية والناصرية التي اجتمعت على معاداة الدين، ومع ذلك كله بقي المجتمع متدينًا محبًا لدينه ملتزمًا بشعائره.

بل إني أرى أن "مصر" إحدى مواطن الفكر العلماني في العالم العربي، والعلمانية هناك وحشيةٌ متطرفةٌ، ترفض الدين جملةً وتفصيلًا، يشير إلى ذلك مثلًا أن أحد رموزهم في مقابلةٍ معه استنكر أن الناس في "مصر" يقولون في حديثهم:" إن شاء الله" "ربنا يوفقني"!!

ورأيت مقابلةً مع "هدى بدران" تستغرب تحوّل اللغة في مصر إلى لغةٍ كئيبةٍ عندما نقول "السلام عليكم" بدلاً من "صباح الخير"!!

وهذا الفكر "العلماني" له رموزه وأحزابه، وصحفه ومؤسساته، ووقفت عاجزةً أمام تديّن المجتمع وحبّه لدينه .

والسبب في رأيي أن الإسلام قوته ذاتيةٌ، وعناصر مقاومته وبقائه كامنةٌ فيه، وشاهد ذلك إقبال غير المسلمين على الدخول فيه، وأذكر في هذا السياق كلامًا للدكتور " علي بن عبدالرحمن الباحسين" مدير "مركز الوثائق التاريخية" في البحرين، وهو متخصصٌ في تاريخ الجزيرة العربية، الذي زرته في المركز أكثر من مرةٍ أثناء بحثي للماجستير "المدارس الأجنبية في الخليج -البحرين

أنموذجًا" وذكر لي أن التوحيد في الإسلام جاذبٌ إليه؛ لأنه الفطرة التي فطر الناس عليها، بخلاف تعدد الآلهة أو التثليث، وهو يُفسّرُ بهذا تمسك المسلمين بدينهم وإقبال أصحاب الديانات الأخرى على الدخول فيه.

وثمّة ملحظٌ في تفسير تمددّ الإسلام وتسرّب شرائعه في المجتمعات الإسلامية أن الأفكار الصادقة لا تموت والمعاني العظيمة لا تبلى، فكيف بكلام الله ووحيه الذي لا ينفد ولا ينقطع.

والدكتور "علي بن عبدالرحمن الباحسين" على أنه عالمٌ في تخصصه وقضى حياته فيه إلا أنه لم يُسْتَفد منه بشكلٍ كبير، بل هو وغيره من القامات العلمية في عالمنا الإسلامي تكون أحيانًا مجهولةً في مجتمعاتها، ولا تجد التقديم الذي يُمكّن من الاستفادة منها، وزاد الطين بلّةً ظهور وسائل التواصل التي صدّرت في كثيرٍ من الحال التفاهة والوضاعة، فضعف في هذا الزخم صوت العلم، وغابت الحقائق، وانزوى الكبار، وآثر العظام المكوث في الظل، وهذا الذي يُسمى تغيّر الزمان، وانقلاب الموازين، واختلال المعايير.

وجادت قريحة الشعراء بأبياتٍ تفيض ألمًا وضيقًا، وتسيل أسىً ولوعةً على ذلك الزمان.

قال أحدهم:

**متى يصلُ العطاشُ إلى ارتواءٍ**

**إذا استقتِ البحارُ من الرّكايا**

**ومن يثني الأصاغرَ عن مرادٍ**

**وقد جلسَ الأكابرُ في الزوايا**

**وإنّ ترفّعَ الوضعاءِ يومًا**

**على الرفعاءِ من إحدى الرّزايا**

**إذا استوتِ الأسافلُ والأعالي**

**فقد طابتْ منادمةُ المنايا**

وقال آخر:

إذا وصفَ الطائيُّ بالبخلِ مادرٌ

وعيّرَ قُسّاً بالفهاهةِ باقلُ

وقال السُهى للشمسِ أنتِ خفيّةٌ

وقال الدجى للصبحِ لونُكَ حائلُ

وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهةً

وفاخرتِ الشُهْبَ الحصى والجنادلُ

فيا موتُ زرْ إنّ الحياةَ ذميمةٌ

ويا نفسُ جدّي إنّ دهرك هازلُ

وتضيق الحياة على سعتها والدنيا على عظمتها بالكبار إذا عاشوا ذلك الزمن العصيب، كما قال أحدهم:

سأتركُ ماءكم من غيرِ وردٍ

وذلكَ لكثرةِ الواردِ فيه

إذا سقطَ الذبابُ على طعامٍ

رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ

إذا كانَ الكلابُ ولغنَ فيه

ويرتجعُ الكريمُ خميصَ بطنٍ

ولا يرضى مساهمةَ السفيهِ

وأعود بك إلى التدين في المجتمع المصري، الذي لم تزده الضربات التي تلقاها في استهداف دينه وثقافته وهُويته إلا صمودًا وإصرارًا على التمسك بدينه والاعتزاز بهُويته.

والذي يَفْهمُ السنن الاجتماعية ويدرك حركة التاريخ ويفقه نصوص الوحي يوقن أن الإسلام لا يُمكن استئصاله أو إضعافه، وأن القوى العالمية التي تعمل لاستئصال الإسلام تقوم باللّامعقول، وتسير ضد حركة التاريخ، وتعمل نقيض السنن الاجتماعية التي أجراها الله في خلقه.

ومن العبر أن ظهرت في المجتمع المصري مذاهب وأفكار، وبرزت توجّهات وشخصيات، وعُقدت ألوية، ورُفعت رايات، وذهب ذلك كلّه، فنُسيت الشخصيات، واندثرت المذاهب، ونُسيت الأفكار، وتكسّرت الألوية، وبقي الإسلام، وصدق الله إذ يقول: ﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ...﴾ [الرعد: ١٧] .

وكثيرٌ من المسلمين تضيق نفوسهم بظهور الباطل في المجتمعات الإسلامية وعلوّ أهله، ويقع في قلوبهم يأسٌ وقنوطٌ فيقعدهم ذلك عن العمل للإسلام والدعوة إليه، وهذا من أعظم معوّقات العمل والدعوة .

وكنت أتمنى على المتخصصين في الدعوة أو الاجتماع دراسة حركة المجتمعات الإسلامية وعوامل التأثير فيها؛ إذ سيجدون موضوعاتٍ حيّةٍ وموادَّ ثريةٍ .

وعند مراجعة الجامعة مرةً أخرى فوجئت أن لجنة المعادلات رأت أنه لا بد من دراسة السنة الثالثة والرابعة من مرحلة البكالوريوس حتى أتأهّل للماجستير، ولم يزدني هذا الأمر إلا إصرارًا على المضيّ فيما اخترته .

وكعادة الإنسان يتألم لأي أمرٍ يعرض له يظنّ أن ظاهره في غير مصلحته، وتبينّ فيما بعد أنّ فيه خيرًا عظيمًا وعطاءً كبيرًا، إذ فَتَحَ لي ذلك الدراسة في أكثر من تخصصٍ والحصول على أكثر من درجةٍ علميةٍ، وفتوحًا أخرى سيأتي ذكرها.

ومن عجلة الإنسان أنه يتكدّر إذا عَرَضَ له ما يظنّ أنه ليس في مصلحته، وربما أساء الظنّ بربه، وتسخّط على القضاء والقدر، وقد قيل:

**فلا تجزعْ وإن أعسرتَ يومًا**

**فقد أيسرتَ في الزمنِ الطويلِ**

**ولا تيأسْ فإن اليأسَ كفرٌ**

**لعلّ الله يغني عن قليلِ**

**ولا تظنّ بربكَ ظنّ سوءٍ**

**فإن الله أولى بالجميلِ**

وعموماً فإن الحياة لا تصفو لأحد، لكن المؤمن يواجهها بقوّة تحملٍ ورحابة صدرٍ، واعتقادِ أن ما عند الله خلفٌ عما فاته ونُقصَ منه، وفي عطائه وجنته عِوضٌ عما افتقده.

وعادة الله تعالى التي أجراها في خلقه أن العطاء بعد البلاء، والمنحة تخرج من المحنة، والشدة يعقبها الفرج، وإسفار الفجر بعد ظلمة السّحر.

وكما قيل:

**وراءَ مضيقِ الخوفِ متسعُ الأمنِ**

**وأولُ مفروحٍ به آخرُ الحزنِ**

**فلا تيأسن فاللهُ ملّكَ يوسفًا**

**خزائنهُ بعد الخلاصِ من السجنِ**

وأحيلت أوراقي لكلية أصول الدين في القاهرة لتقييدي طالبًا في مرحلة البكالوريوس في تخصص "الفلسفة". وتعرّفت على "محمود حفني" مدير شؤون الطلاب في كلية أصول الدين، وصار بيني وبينه ودٌ وصلة، ومعاملته لي في غاية اللطف والبرّ، وكان من محبته وإشفاقه إذا رآني أُسلّم على دكتور عنده إشكالٌ في الجامعة لهذا السبب أو ذاك، يدعوني ويسرّ في أذني "دعك منه".

ومما أذكره أني رأيت الدكتور "يحيى إسماعيل" أستاذ الحديث في الكلية ومحقّق كتاب: "إكمال المعلم في فوائد مسلم" للقاضي عياض، فسلّمت عليه، فدعاني وقال لي: "اكتف بالسلام عليه فقط"، لوجود مشكلاتٍ بينه وبين الجامعة.

وقد ذكرتُ لك أن من لطف الله بي أن هيأ لي في كل مكان أذهب إليه من أطمئن إليه فأرتاح لخدمته ويبذل وسعه في ذلك.

وتوثّقت الصلة "بمحمود حفني" لمدة ثلاث سنوات حتى تقاعده، ثم علمت بعد انتهائي من الدراسة بوفاته رحمه الله رحمةً واسعة.

رجعت من تلك الرحلة، تبعتها رحلةٌ أخرى قصيرة وكانت في رمضان؛ لاستكمال أوراق التقديم، وأذكر من وقائع تلك الرحلة أني وقفت عصرًا في صفٍ أمام الصرّاف الآلي، وإذا بشاب "يدخن" باستهتار، فما لبث حتى ثار الناس عليه وضربه بعضهم وولىّ هاربًا صاغرًا.

ومن طريف ما طُلب مني لاستكمال أوراقي "شهادة الميلاد" فاعتبرت ذلك تعقيدًا لمعاملتي، لكن في الوقت نفسه لمست التيسير لما قنعت الكلية بورقةٍ من "الأحوال المدنية" تضمنّت بياناتي الأساسية.

ورأيت من مظاهر رمضان في "مصر" ما يسمونه "موائد الرحمن"، يصنعها المحسنون في المساجد والطرقات والفنادق لتفطير الصائمين، وبعضها تمتد لثلاثين سنةً أو تزيد، وتشعر فيها بجمال رمضان، وروح الجماعة، وحلاوة الإحسان، ولذة الحياة .

ومن مظاهر رمضان المنتشرة في "مصر" "فانوس" رمضان، يعلقه الناس في بيوتهم ودكاكينهم، ويمثّل نشاطًا اقتصاديًا كبيرًا، وهو إن بدا أنه عادةٌ اجتماعيةٌ إلا أن طَبْعَ الشعائر الدينية بعاداتٍ يُضعف جوانب التعبّد فيها أو يُخفيها.

وترى المساجد في صلاة التراويح تكتظّ بالمصلين مما يسرّ الخاطر ويبهج القلب ويبعث على التفاؤل، وغالب المساجد يطيلون الصلاة، وبعضهم لا يخرج إلا قرب الفجر، ومنهم من يختم القرآن في التراويح أكثر من مرّة.

❖❖❖❖❖❖